تعقيبات

للأستاذ أنور المعداوى

« بنات » للأستاذ أحمد الصاوى محمد :

كتاب يطرق أبواب الشعور فى النفس الإنسانية طرقاً عنيفاً فى كل فصل من فصوله قصة ، وفى كل قصة قلب ، وفى كل قلب عاطفة . ويقف المؤلف من وراء هذا كله ليلهب القلب الذى يخفق ، وليؤجج العاطفة التى تحرق ، وليقدم من صور الحياة نماذج فيها من زهر الشرق ، وفيها من عطر الغرب ، وفيها القلم الذى يصب الزهر والعطر فى قارورة الوجدان !

فى هذا الكتاب فتاة ظلمها الصاوى كل الظلم حين لخص قصتها الرائعة فى ثلاثين صفحة ؛ فتاة ليست كبقية الفتيات ، لأن مبدع شخصيتها كاتب ليس كبقية الكتاب !

هذا الكاتب الفرنسى أخفض قلمى تحية لفنه ، ولا تصغى بالنظر إذا أحنيت رأسى إجلالا لعبقريته !

وتسألنى لماذا ظلمها الصاوى؟ فأقول لك : لأن هذه المسرحية تهز منك الأعماق وهى ملخصة فى ثلاثين صفحة ، فما بالك لو أفرد لها الصاوى كتاباً نقل فيه كل همسة نفسية من همسات الكاتب الفرنسى وكل وثبة فنية من وثبات قلمه ؟ !

مسرحية تعد فى رأى النقد نموذجاً فنياً بالغ من النضج فى كل عنصر من عناصره ما يدفع به إلى القمة من الأدب المسرحى الحديث ... الفكرة من تلك الأفكار التى لا يلتقطها من أعماق النفس إلا ملتقط خبير بمسارب الشعور الإنسانى حين ترتطم بواقع الحياة ، والحوار موهبة فذة ترقب الشخوص من مرصد الوعى المرهف لتسجل الحركة النفسية قبل الحركة الفكرية ، والصراع من هذا اللون الذى تستحيل معه الكلمات إلى متحف من متاحف العرض الفنى لصور الأهواء والنزعات ، أما طريقة التوزيع المسرحى للأدوار الرئيسية فتذكرك بطريقة الكاتب النرويجى إبسن فى مسرحيته الخالدة « The wild duck » أو البطة المتوحشة ؛ كل دور يلائم شخصيته المقنعة به ملاءمة تجمع بين منطق الحياة ومنطق الفن . ويبقى بعد ذلك للكاتب الفرنسى تفرده بحرارة الصراع وعنف الوجيب فى القلب الإنسانى !

دعنى أقدم إليك هذه المسرحية الرائعة التى لخصها الصاوى تلخيصاً أميناً تحت عنوان « بنت بين أبوين » ... هى فتاة كما قلت لك ليست كبقية الفتيات ؛ فتاة رقيقة الحس ، مكتملة العقل ، مشبوبة العاطفة . نشأت فى بيت من تلك البيوت التى تظلل سماءها الصافية غيوم من الحيرة والشك والضلال ؛ فأبوها رجل ممزق القلب ، مغمض العينين ، متبلد الشعور والوجدان . زوجته فى رأيه ليست زوجته ، وابنته فى وهمه ليست ابنته ... وتمضى عجلة الزمن لتطوى من حياة الأسرة المذبة الحائرة عشرين عاماً ؛ عشرين عاماً لقيت فيها الزوجة ما لقيت من شكوك الزوج وإهماله ، ولقيت فيها الفتاة ما لقيت من خشونة الأب وإعراضه ! وتشب الفتاة عن الطوق وبين جنبيها قلب يتقلب على جمرات من الحقد على هذا الأب الذى لم يشعرها يوماً بحنان الأبوة ، وعلى تلك الأم التى حرمتها هذا الحنان فى فجر العمر وشبابه ، حين جاءت بها إلى الحياة من رجل غير الرجل ... وللأسرة صديق يتهمه الزوج بانتهاك حرمة العطر فى زهرة كان يمكن أن تملأ بيته بالأرج ، وتقف الزوجة والصديق أمام هذا الاتهام السافر موقف المظلوم من القاضى الجائر ؛ فهو إن قدم الدليل على براءته لا يجد الأذن التى تسمع ولا القلب الذى يشفع! والفتاة البائسة تجلس فى الصف الأول من صفوف النظارة لتشهد المأساة بكل خلجة من خلجات الفكر الموزع والعقل المشتت والضمير الملتاع . وينتهى الفصل الأخير بأن تغادر الفتاة المسرح الذى ملأ عينيها بالدمع وأرمض جوانحها بالعذاب ، ولكن إلى أين ؟ ... إلى هناك ، إلى البيت الآخر الذى يضم بين جدرانه رجلاً كانت تناديه أبداً بيا « أبى » تناديه بها بالقلب والروح واللسان ! أكان أبوها حقاً ذلك الرجل الذى لجأت إليه ؟ الله يشهد أنه لم يكن للعائلة غير صديق؛ صديق يحب الزوج ويجل الزوجة ويعطف على الفتاة ، ولكن الشك قد أظهره فى عينى الزوج المضلل بمظهر العاشق وفى عينى الفتاة الشقية بمظهر الأب ، وما أثقلها من كلمة كانت تلهب شعوره بسياط الأسى الدفين حين تناديه الفتاة بنداء الأبوة وهو عنه بعيد بعيد !

ويأتى يوم يتدخل فيه القدر ليرفع الغطاء عن وجه الحقيقة ، والنشاوة عن عينى الزوج ، وكما يستيقظ النائم من نومه الطويل وأحلامه المفزعة ، فقد استيقظ الزوج بعد عشرين عاماً ليطلب الصفح من الزوجة والابنة والصديق ... ويصفح الصديق عن

زلته ، وتعفو الزوجة عن سقطته ، وتبقى الفتاة بحول البغض والحقد بينها وبين الصفح والمغفرة ! وهنا يبدأ الصراع النفسى العنيف الذى يرتفع بالفن المسرحى إلى الأوج ... أب يتوسل إلى ابنته أن تصفح ، وأن تعفو ، وأن تعود إليه ، أب فرغ قلبه وفرغت حياته من الحب البنوى عشرين عاماً ويريد اليوم أن يملأ فراغ القلب والحياة ، أب يئن أمام عاطفة ابنته المتحجرة أنين حيوان شيمته السهام فراح يلعق جراحه ، أب يحاول أن يقنعها بأنه أبوها وأنها ابنته ، وكما شق طريقاً إلى القلب المغلق وقف الماضى البغيض ليعترض طريق أحلامه وأمانيه ! ... إذا قال لها إن عينيه تشبهان عينيها قالت له : أجل يا أبى ، بما ليس فيهما من حنان ! وإذا قال لها يجب أن تؤمنى بطهارة الأم التى أنجبتك ، قالت له : إن من يعيش معك يا أبى لا يؤمن بأحد ! وإذا قال لها أحبى يا ابنتى ما كرهته واجتويته ونفرت منه عشرين عاماً ، أنا بشكلى ورأسى ويدى وظهرى قالت له : ولكن ابتسامتك يا أبى ، ونبرة صوتك ، ووقع خطاك ! وإذا قال لها ألا نحاول يا ابنتى أن يقترب أحدنا من الآخر قالت له : إن من واجبنا يا أبى أن نحاول ! ويهتف الأب وهو ينفس بلوعته : أرأيت يا ابنتى أن الكلمة الوحيدة التى وجدتها هى كلمة (الواجب) وهى كلمة ينقصها السحر ؟ ! وتجيبه الفتاة وهى تشرق بالدمع : آه لو أمكننا ! ويهمس الأب من أعماقه : أن نتسامح ، وأن نتصافح ! وأمام اللهفة الضارعة تقول له : تكفى لحظة حنان فى حياتنا العدائية ، تذكر شيئاً ، شيئاً نستطيع أن ننسج عليه مودتنا ، ثم محبتنا ، ثم سعادتنا تذكر عندما كنت طفلة ومرضت ، ألا تذكر ؟ فلنبحث عن شىء آخر يا أبى ، شىء أكون قد قلته لك ... كلمة ... أو إشارة تسعفنا اليوم وتقرب أحدنا إلى الآخر ! ويصرخ الأب فى يأس مرير : آه يا ابنتى ، لا أكاد أجد شيئاً ، لقد كنت بلا ريب طفلة لطيفة ، ثم بنتاً جميلة ، ولكننى لم أنظر إليك ، لقد كرهتك منذ مولدك ، أما الآن فلشد ما أحب أن أحبك يا ابنتى !! ... أنظرى أليس مثلنا كمثل كفيفين عمى منهما البصر وهما يتخبطان فى الظلام مادين أيديهما ليلتقيا ؟ ! هيا يا ابنتى إلى البيت ، ولن نكون الأسرة الوحيدة على ظهر الأرض التى يعيش فيها أب وابنته جنباً إلى جنب بغير حب !

ترى هل ذهبت معه ؟ كلا ! إن الريشة المبدعة تريد أن تختم المسرحية الفذة ختاماً نفسياً لا نظير له ... إن الكاتب الفرنسى يريد أن يلقى على رجال الفن درساً ترسم لهم الطريق ؛ وها هو ذا ينطق الفتاة بأعمق وأروع ما يمكن أن تنطقها به الحياة :

« لن أذهب معك يا أبى لأنى أريد أن أحبك ... يجب أن نتحاب يا أبى وقد أحبك إذا سافرت إلى أى مكان بعيد ! إنى لا أستطيع أن أنطق أمامك بشعور الميل والانعطاف لأنك أمامى وحتى لو قلت لى أرنى ما عندك فإنى لم أتأثر به إذ أنك تقوله بذلك الصوت الذى طالما تألمت منه أطرافى وجرح فؤادى ... لا حيلة لى منه فهو ما زال يؤلمنى ويجرحنى ! حتى لو بكيت يا أبى ورأيت دموعك تسيل على وجهك ؛ وجهك الذى ظل عشرين عاماً وهو يتجهم لى !! ... وعلى ذلك فلا بد لبناء شىء بيننا من أن نهدم أولا كل شىء ، ولكى أحبك لا بد لى من أن أنساك ... ولكى نزداد قرباً منى ينبغى أن نزداد بعداً ... سافر إذن لأفكر فيك . واكتب إليك ... ولكى تكون أبى الذى بعد عنى والذى سيعود إلى ... أبى المجهول الذى لا يعرفنى ، والذى سيجىء يوماً ما ... سوف ترى ، فإنه ما إن يتم البعد بيننا قليلا حتى يقترب الحب بيننا قليلا ... وفى رسالة من رسائلنا ، نزداد جرأة على إبدائه ، والتعبير عنه ... ثم نتحاب حقاً يوماً ، وعندئذ نعود ... أتريد ذلك يا أبى » ؟ ويجيبها الأب وهو يجر قدميه مندفعاً إلى الخارج وفى صوته رائحة الدموع : نعم يا بنيتى ... وسأنتظر رسائلك الأولى !!

فتاة كما قلت لك ليست ككل الفتيات ، لأن القلم الذى قدمها إلى الناس قلم كاتب ليس ككل الكتاب ... واقرأ بعد ذلك للصاوى قصصاً أخرى بعضها له وبعضها لكتاب آخرين من الأدب الفرنسى ، ومهما بدا لك من الاعتراض هنا وهناك فلن تستطيع أن تنكر على الصاوى أنه إنسان ؛ إنسان يستثير قلبه فى قصصه حين يكتب ، ويرجع إليه دائماً فى قصص غيره حين يعرِّب ! اقرأ مثلا فى الفصل الأول قصة الفتاة التى تضحى بحبها الذاتى فى سبيل الكرامة ، وفى الفصل الثانى قصة الفتاة التى تضحى بحبها الأبوى فى سبيل الزوج ، وفى الفصل الرابع قصة الفتاة التى تضحى بحبها الخيالى فى سبيل الأمومة ، وفى الفصل الأخير قصة الفتاة التى تضحى بحبها المثالى فى سبيل الوطن ! واقرأ إذ شئت فى الفصول الأخرى ألواناً من المرأة وألواناً من الحب ، وإذا كانت هذه الألوان لا تبلغ المستوى الرفيع فى قصة الكاتب الفرنسى والقصص الأربع التى أشرت إليها فى الفصل الأول والثانى والرابع والأخير ، فحسبك أن خفقات القلب فيها تسبق وثبات القلم !

بعض الرسائل من حقيبة البريد :

قلت وما زلت أقول لماذا يؤثر بعض القراء أن يظلوا مجهولين وهم أصدقاء ؟ ... هذه رسالة من « القضارف — سودان » تحمل إلىّ من أديب لم يذكر اسمه تحية ملؤها التقدير الكريم لهذا القلم المتواضع الذي يسطر تعقيباته من أسبوع إلى أسبوع . إن هذه التحية الكريمة وأمثالها من التحايا الصادرة من أعماق الشعور والقلب والعاطفة ، لتؤكد لى أن رسالة الأدب بخير ما دام هناك خلق وعقل وذوق ووفاء ، أما أنا فلا أملك لهؤلاء القراء الأصدقاء جميعاً غير الشكر ، وإنه لشكر العاجز المقصر عن بلوغ ما يريد !.

وهذه رسالة أخرى من « الإسكندرية » تحمل إلىّ أيضاً ما حملته الرسالة السابقة من عاطر الثناء ، ولكن مرسلها الأديب الفاضل سعيد كامل غير راض عن الكلمة التي كتبتها منذ أسبوعين عن الريف ، لأن قضية الريف كانت تنتظر منى تصوراً أصدق وأوفى وأكثر إحاطة مما كتبت ! إن ردى على الأديب الفاضل بعد خالص شكرى له هو أنى ما أردت من وراء كلمتى عن الريف إلا أن أسجل حالة شعورية صادقة تركت أثرها فى نفسى وحسى ، وأعتقد أنى قد نقلت حديث الشعور إلى الورق نقلا يمكن أن يحرك ذوى النفوس الشاعرة من أصحاب الأقلام وأصحاب السلطان

أما الرسالة الثالثة فمن تاجر فاضل « بمحلة مرحوم » يهوى الأدب ويحب « الرسالة » وهو السيد حنفى الشريف ... يسألنى التاجر الأديب حلاً لمشكلة سببها له صديق الأستاذ راجى الراعى فى قطرات ندائه حين قال : « أتعس الناس رجل ذو ذاكرة قوية يصرف الساعات الطوال من نهاره وليله فى المطالعة ولا يرى فيه قوة للتعبير عما يشعر به ، فتظل تلك الخلائق فى أرحامه لا تقوى على الخروج وتتراكم مع الزمن حتى يصاب بالاستسقاء الذهنى وفى مساء يوم من أيامه السود ينفجر رازحاً تحت أثقاله ويسلم الروح منتحراً أو مجنوناً ! إن النفس إذا غصت ساحتها بما فيها ولم تجد لها منفذاً أصيبت بالاختناق ، فلا تصرفوا أوقاتكم فى القراءة إذا كنتم لا تستطيعون أن تكتبوا . القلم ترجمة الروح فاكتبوا كلما قرأتم لترتفع أشجاركم بدورها بين تلك الأشجار التى تتفيأونها فى غابات الفكر والإحساس . اقدحوا كرى أرواحكم بين الحين والحين لئلا يفسد هواؤها » ! ... إن مشكلة التاجر الأديب هى أنه مشغوف بالقراءة والاطلاع والاغتراف من منابع الأدب ، ولكنه لا يملك القدرة على التعبير عما يجيش بنفسه من شتى الخواطر والأحاسيس بما يرضى أديباً كبيراً كالأستاذ الراعى ، فهل يترك القراءة والاطلاع لأنه لا يستطيع أن يعبر ؟ ! هذا السؤال يوجهه إلىّ صاحب الرسالة ، وأنا أترك الجواب للأستاذ راجى الراعى لأن الموضوع موضوعه وهو أحق منى بالجواب !

وتبقى بعد ذلك الرسالة الرابعة وهى من « السودان » أيضاً إنها رسالة عزيزة علىّ لأن ما فيها من عتاب وطنى حار قد لفح منى الشعور والوجدان ! أود أن أقول لمرسلها الأديب الفاضل ج . البشير إنى سأفرد الموضوع الذى أثرته بكلماتك الملتهبة بصدق الوطنية والإيمان مكاناً خاصاً من « تعقيبات » العدد القادم ...

قصة « مالك الحزين » فى مجلة الثقافة :

قصة مالك الحزين قصة معروفة لكل من قرأ كتاب « كليلة ودمنة » ، وهى قصة قصها بيدبا الفيلسوف على دبشليم الملك حين طلب إليه أن يضرب له مثلا للرجل يرى الرأى لغيره ولا يراه لنفسه ... هذا المثل الذى ضربه الفيلسوف لهذا الصنف من الناس مستمداً معناه من شخصية مالك الحزين ، هذا المثل تستطيع أن تعثر عليه فى العدد الصادر منذ أسبوعين من الثقافة فى صورة دكتور من الدكاترة الشبان ، يلذ له دائماً أن يحمل عصا الأساتذة فى النقد الأدبى ! قال الدكتور وهو يعرض لأحد الكتب بالنقد والتوجيه :

« دعوت فى مقال سابق إلى أن لا يكتب المؤلف كتاباً إلا وقد أصبحت أفكاره تجارب يعيشها ويحياها ، حتى يكون الكتاب ذا قيمة حقيقية وحتى يمكن أن يتمتع به الناس ؛ فإن الكتاب إن لم يصدر عن منطق المؤلف وروحه ، ولم يصبح جزءاً لا يتجزأ من ذهنه ونفسه ، يكون شيئاً تافهاً ، ولا يكون خليقاً بالنظر والدرس . وقد يظن بعض المؤلفين فى هذا عنفاً وقسوة فى الحكم على الكتب ، ولكنهم إذا نظروا فى الساعات التى اقتطعوها من القارىء فى غير جدوى ، إلا أن يأتوا بأخبار من هنا وهناك ، حتى ليغدو الكتاب كأنه سوق غير منظمة يختلط فيها الزائف بغير الزائف والمهوش بغير المهوش ، إذا نظروا فى ذلك اعترفوا بصحة ما نذهب إليه » .

كلمات الدكتور الناقد حق فى حق ، ولكن هل يتفضل بتطبيقها على كتبه قبل أن يطبقها على كتب الناس ؟ أم أنه يريد أن يعيد لنا قصة مالك الحزين ، ذلك الذى قال عنه بيدبا الفيلسوف أنه يرى الرأى لغيره ولا يراه لنفسه ؟ ! ...

أنور المعداوى